جامعة ديالى

كلية التربية الاساسية

قسم التاريخ

المحاضرة الاولى

المادة

عصر الرسالة

م. د ازهار غازي

٢٠١٥ ١٤٣٦

الفصل الثاني

حياة الرسول ﷺ
منذ الولادة وحتى البعثة

ان التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي مرت بشبه جزيرة العرب حتى القرن السادس الميلادي ، كانت كما أوضحنا في الفصل السابق ، تؤذن بقرب بزوغ فجر جديد ، يقلب موازين القوى في المنطقة ، ويفتح الطريق امام تحولات كبرى ، ليس على مستوى شبه الجزيرة العربية فحسب ، بل على مستوى العالم والانسانية جمعاء .

وكان مما يلتقي مع سنّة اللّه في كونه ، أن يكون المصطفى لقيادة عملية التغيير الكبرى ، رجلا من صميم العرب ، ومن ابناء مدينة مكة ، حيث بيت اللّه الحرام الذي يحج اليه الناس من مختلف انحاء شبه جزيرة العرب ، وحيث تقيم قبيلة قريش التي كانت تمارس دورا قياديا بين العرب في كافة المجالات ، الاقتصادية والسياسية والثقافية .

ان رسالة التغيير التي حملها محمد بن عبداللّه ﷺ ، هي الاسلام ، وهي دعوة دينية سعت لاجراء تغييرات شاملة في أوضاع العرب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ، فكيف تيسر لرسول اللّه ﷺ ان يضطلع بمثل هذه الأمانة العظيمة ويحقق

أهدافها الكبرى خلال حياته الحافلة بالأحداث والتطورات. ان الاجابة عن ذلك تتطلب العودة الى الجذور الأولى لنشأته وتكوينه ونضجه حتى نزول الوحي عليه. وسنقدم لكل ذلك بالحديث عن أجداده الذين أخذ عنهم العديد من الصفات والمؤهلات التي كان لها تأثيرها على مسار حياته واعماله وبخاصة واننا قد تحدثنا في الفصل الأول عن بيئته التي نشأ فيها وحقق اعماله الكبرى في اطارها.

أولا : نسبه وأجداده :

تتفق المصادر التأريخية على عروبة محمد ﷺ وانتسابه الى قبيلة قريش ، وهي تقدم لنا سلسلة نسب متصلة الحلقات في هذا المجال تبدأ بمحمد لتصل الى عدنان ، وعلى النحو الآتي : «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان»[1]. ان هذه السلسلة من النسب هي مايتفق على ذكره النسابون العرب ، أما مابعد ذلك وحتى تصل النسبة الى اسماعيل بن ابراهيم (عليه السلام) ، فهي من الأمور المختلف على تفاصيلها كثيرا لبعد عهدها عن عصر الرسالة[2].

وقد لوحظ ان نسب رسول الله ﷺ يلتقي عند «فهر» بجميع بطون قريش لأن من «كان من ولد فهر فهو قرشي» كما يلتقي نسبه عند «عدنان» بنسب جميع القبائل العربية الشمالية التي تدعى بالعدنانية[3].

وكان من أجداد محمد بن عبد الله الذين اضطلعوا بدور كبير في حياة مكة : قصي بن كلاب وهاشم بن عبد مناف ، وقد أوضحنا دور كل منها عند الحديث عن أوضاع مكة السياسية والاقتصادية في الفصل الأول. أما جده المباشر، وهو عبد المطلب بن هاشم ، فان من الضروري القاء بعض الأضواء على حياته ليس بسبب هذه الصفة فقط ، وانما لأنه قام من محمد ﷺ مقام الاب والمربي بسبب وفاة والده عبد الله.

---

(١) ابن اسحاق : المغازي والسير، ص١ ، ابن قتيبة : المعارف، ص ٧٠ ، ابن حزم : جوامع السيرة ، ص٢.
(٢) المصادر نفسها.
(٣) ابن حزم : جوامع السيرة ، ص٣.

نشأ عبدالمطلب في مدينة يثرب ، وذلك لأن أمه سلمى بنت عمرو من بني النجار، كانت من أهل يثرب ، وقد تزوجها هاشم عند أهلها ثم سافر بتجارته الى غزة وهناك توفي ودفن ، وقد اشارت المصادر الى انه كان لهاشم اولاد آخرون إلا انهم جميعاً لم يتركوا لهم عقباً. لذا فإنه «ليس في الارض هاشمي الاّ من ولد عبدالمطلب بن هاشم»[٤].

وحين بلغ عبدالمطلب سن الفتوة والشباب ، قدم عمه المطلب بن عبد مناف الى يثرب لأخذه الى مكة. وحين عارضت أمه ذلك أقنعها بقوله : «ابن أخي ، قد بلغ وهو غريب في غير قومه ، ونحن أهل بيت شرف قومنا ، والمقام ببلده خير له من المقام ههنا ، وهو ابنك حيث كان»[٥].

ويذكر ان اسم عبدالمطلب كان عامراً[٦] ، وقد أطلق عليه ايضا اسم شيبة ، لأنه ولد وفي رأسه شيبة[٧]. كما عرف باسم عبدالمطلب بعد مجيئه الى مكة لأنه حين دخلها خلف عمه المطلب بن عبد مناف قالوا : «هذا عبدالمطلب فلزمه الاسم وغلب عليه»[٨].

لقد كان منصب الرفادة والسقاية في مكة بيد المطلب الذي شغله بعد وفاة أخيه هاشم ، فلما توفي المطلب «ولي عبدالمطلب بن هاشم الرفادة والسقاية ، فلم يزل ذلك بيده يطعم الحاج ويسقيهم في حياض من أدم بمكة ، فلما سقي زمزم ترك السقي في الحياض بمكة وسقاهم من زمزم حين حفرها ، وكان يحمل الماء من زمزم الى عرفة فيسقيهم»[٩].

وقد ذكر ابن اسحاق ان قريشا نازعت عبدالمطلب حين حفر زمزم ، وقالوا له «انها بئر أبينا اسماعيل ، وان لنا فيها حقا ، فأشركنا معك»[١٠] ، غير ان عبدالمطلب رفض الاستجابة لطلب قومه ، مما اضطرهم على الاتفاق الى عرض هذه المنازعة على كاهنة بني سعد بن هذيم بأطراف الشام لتحكم بينهم[١١].

---

(٤) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٤٣.
(٥) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ٨٢.
(٦) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٤٣.
(٧) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٧٩.
(٨) ابن قتيبة : المعارف ، ص ٤٣ ، ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٨٣.
(٩) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٨٣.
(١٠) ابن اسحاق : المغازي ، ص ٣.
(١١) المصدر نفسه ، ص ٣.

ويبدو ان السقاية في مكة وكذلك الرفادة كانت تدر دخلا على من يتولى ادارتها [١٢] ، لذا فقد سعت بعض الأطراف في مكة الى مشاركة عبد المطلب في ادارة بئر زمزم . كما ان ذلك يدل على ان مركز عبد المطلب في هذه المرحلة لم يكن قويا في مكة ربما بسبب حداثة اقامته فيها ، وقلة افراد عشيرته ، لذا فقد ذكر ابن اسحاق وغيره ان عبد المطلب » نذر حين لقي من قريش عند حفر زمزم مالقي : لئن ولد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه ، لينحرن احدهم للّه عزّ وجلّ عند الكعبة . فلما توافى بنوه عشرة : الحارث ، والزبير ، وحجل ، وضرار ، والمقوم ، وابو لهب ، والعباس ، وحمزة ، وابو غالب ، وعبد اللّه ، وعرف انهم سيمنعونه ، جمعهم ثم أخبرهم بنذره التى نذر ودعاهم الى الوفاء للّه بذلك ، فأطاعوا له » [١٣] . وقد ذكر ابن اسحاق أن عبد المطلب تخلص من هذا المأزق الشديد الذي يقضي بأن يضحي بأحد ابنائه وكانت القرعة قد وقعت على عبد اللّه ، بأن قدّم قربانا مائة من الابل بمثابة فدية عن دم ولده [١٤] .

ان قيام عبد المطلب بالوفاء بهذا النذر ، بتقديم مائة من الابل فداء عن دم ابنه عبد اللّه يدل على ان حالة عبد المطلب الاقتصادية كانت جيدة في هذه المرحلة ، كما ان مركزه السياسي بين قومه قد غدا قويا بعد أن اصبح لديه عشرة ابناء يشدون من أزره في المواقف الصعبة . وقد مكنّه ذلك من « تزويج بناته من أفضل عائلات مكة وأقواها » [١٥] ، فقد تزوجت صفية (كانت أمها من زهرة) أولا احد ابناء حرب بن أمية (شيخ عبد شمس) ، ثم العوام بن خويلد (أسد) ، وأما عاتكة (أمها من مخزوم) فقد تزوجت ابا أمية بن المغيرة (مخزوم) ..... » [١٦] ، وهكذا ...

لقد تمكن عبد المطلب من خلال خدمته لقومه واقامته لعلاقات مصاهرة مع أقوى الأسر القرشية أن يحتل مركزا متقدما بين وجوه مكة ورجالاتها . بل ان جميع المصادر العربية تتحدث عنه حين ذهب لمفاوضة ابرهة الحبشي الذي جاء لاحتلال مكة بصفته سيد قريش وزعيمها [١٧] . ولابد ان فشل حملة ابرهة المريع على مكة قد عزز من مكانة

---

(١٢) العلي : محاضرات في تاريخ العرب ، ص ٩٨ – ٩٩ .
(١٣) ابن اسحق : المغازي ، ص ١٠ .
(١٤) المصدر نفسه ، ص ١٠ – ١٨ .
(١٥) وات : محمد في مكة ، ص ٦٣ .
(١٦) المرجع نفسه ، ص ٦٣ .
(١٧) ابن اسحاق : المغازي ، ص ٣٩ ، ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٩٢ .

عبد المطلب في نظر الناس وجعلهم يمنحونه حبهم وثقتهم على الرغم من أنه لم تصل اليـ تفاصيل موقفه وما دار بينه وبين ابرهة بصورة مقنعة ودقيقة [١٨] .

ولاتزودنا المصادر التاريخية بمعلومات مفصلة عن ابنه عبد الله ، الاّ انها تتفق على ا كان من أصغر ابنائه ، بل ان الطبري يصّرح بأن عبد اللّه كان « أصغر ولد ابيه » [١٩] . غ ان ذلك غير صحيح لأن حمزة كان أصغر منه كثيرا وذلك لأن عمره كان قريبا من عم رسول اللّه ﷺ » فكان حمزة عم رسول اللّه ﷺ في النسب ، وأخاه في الرضاعة » [٢٠] .

أما اخوة عبد اللّه لأمه وأبيه فكانوا كلا من الزبير وعبد مناف الذي اشتهر باسم اب طالب ، وكانت امهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، وقد أضافـ احدى الروايات اليهم عبد الكعبة . أما اخواته لأمه وأبيه فهن كل من عاتكة وبر وأميمة [٢١] .

وقد أشير الى ان عبد اللّه « كان أجمل رجال قريش » [٢٢] ، وكان احب الناس اـ عبد المطلب » [٢٣] ، ولا تزودنا المصادر بمعلومات عن حياته في صباه وشبابه ، وكل ماوصـ الينا عنه أخبار تتصل بزواجه ووفاته .

فقد ذكر ابن اسحاق ان عبد المطلب أخذ بيد عبد اللّه « حتى أتى به وهب بن عبا مناف بن زهرة — ووهب يومئذ سيد بني زهرة نسبا وشرفا — فزوجه آمنة بنت وهب بن عبا مناف بن زهرة ، وهي يومئذ افضل امرأة في قريش نسبا وموضعا » [٢٤] .

وقد ذهب أحد الباحثين الى أن آمنة بنت وهب « من بني زهرة من بني النجار من مدينة يثرب » [٢٥] . وقد أشار لتوثيق رأيه في هامش كتابه الى كل من ابن هشام في السيرة النبوية وابن سعد في الطبقات الكبرى . غير أنه لدى الرجوع الى هذين المصدرين تبين

---

(١٨) العلي : محاضرات في تاريخ العرب ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .
(١٩) تاريخ الرسل والملوك ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ .
(٢٠) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ٩٥ .
(٢١) الطبري : تأريخ ، ج ٢ ، ص ٢٣٩ .
(٢٢) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .
(٢٣) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٣٩
(٢٤) المغازي ، ص ١٩ .
(٢٥) جواد علي : تاريخ العرب في الاسلام ، ص ٩٦ .

أنها يذهبان الى عكس ما ذهب اليه الباحث ويؤكدان ان آمنة بنت وهب بن عبد مناف ابن زهرة بن كلاب من قبيلة قريش [٢٦].

ويبدو ان عبد الله كان يشتغل بصورة أساس بالتجارة شأنه في ذلك شأن غالبية أفراد قبيلته، وتشير الروايات التي تحدثت عن الظروف التي احاطت بوفاته انه كان قد خرج «الى الشام الى غزة في عير من عيرات قريش يحملون تجارات» [٢٧]، مما يدل على انه كان يعمل في القوافل التجارية بصفة اجير لدى اصحاب القوافل الأثرياء. ويظهر ان ذلك كان أمرا طبيعيا لمن كان في مثل سن عبد الله، اذ انه لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين من العمر.

وهنالك رواية تشير الى ان أباه كان قد بعثه الى المدينة ليشتري له تمرا فمات [٢٨]، غير ان المصادر ترجح صحة الرواية الاولى [٢٩]، فتذكر ان عبد الله كان قد أصابه المرض لدى عودته من الشام «فمروا بالمدينة وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض، فقال: أنا اتخلف عند اخوالي بني عدي بن النجار، فأقام عندهم مريضا شهرا، ومضى أصحابه فقدموا مكة، فسألهم عبد المطلب عن عبد الله، فقالوا خلفناه عند اخواله بني عدي بن النجار، وهو مريض، فبعث اليه عبد المطلب اكبر ولده الحارث، فوجده قد توفي ودفن في دار النابغة، وهو رجل من بني عدي بن النجار» [٣٠]، وكان عمر عبد الله حين وفاته خمسا وعشرين سنة [٣١].

ولم يترك عبد الله لدى وفاته سوى جاريه تدعى ام أيمن واسمها بركة، وقد تولت حضانة الرسول ﷺ، وخمسة جمال وقطعة غنم [٣٢].

---

(٢٦) ابن هشام: السيرة، ق ١، ص ١٥٦، ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٩٤–٩٥.
(٢٧) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٩٩.
(٢٨) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٩.
(٢٩) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٩، الطبري: تأريخ، ج ٢، ص ٢٤٦.
(٣٠) ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ٩٩.
(٣١) المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٩.
(٣٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٠٠.

ثانيا : ولادة محمد بن عبد الله ﷺ :

تتفاوت المصادر التاريخية تفاوتا كبيرا في مسألة تحديد تاريخ ولادة الرسول ﷺ وعمره حين وفاته . ويصل هذا الخلاف في تقدير عمره الى خمس سنوات . ففي الوقت الذي تذكر فيه بعض الروايات انه توفي وعمره ستون سنة تذهب روايات اخرى الى ان عمره كان ثلاثا وستين ، في حين تؤكد روايات اخرى ان عمره كان خمسا وستين سنة (٣٣) .

ان مما يساعد الباحث على تحديد تاريخ ولادة الرسول ﷺ هو الاستعانة بالتواريخ التي تتفق عليها معظم المصادر المعتمدة . ومن جملة هذه التواريخ ، تاريخ وفاة الرسول ﷺ ، اذ تجمع المصادر على انه توفي في السنة الحادية عشرة للهجرة ، وهي توافق سنة ٦٣٢ م (٣٤) . كما تتفق معظم المصادر على ان عمره حين نزل عليه الوحي برسالة الاسلام كان اربعين سنة (٣٥) ، وانه بقي يدعو الى الله في مكة ثلاث عشرة سنة قبل ان يهاجر الى المدينة (٣٦) .

وبذلك يمكن للباحث ان يقرر ان الرسول ﷺ قد نبيء في سنة ٦٠٩ م ، وأنه قد ولد في سنة ٥٦٩ م ، وأن عمره حيث وفاته كان ثلاثا وستين سنة . اما الروايات التي تذهب الى ان عمره حين نزل عليه الوحي كان ثلاثا واربعين سنة (٣٧) ، فانها تبدو لنا روايات ضعيفة وذلك لأنها جاءت على خلاف ما اتفقت عليه معظم الروايات ، بالاضافة الى ان القرآن الكريم كان يعد سن الأربعين هي سن الاكتمال والنضج . وقد أشار الى ذلك بقوله : ﴿حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة ، قال رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت عليّ وعلى والديّ﴾ (٣٨) .

أما عن الظروف التي ولد فيها الرسول ﷺ ، فان معظم الروايات تذكر ان والده توفي وهو لايزال في بطن أمه ، اي انه ولد يتيم الأب (٣٩) ، غير ان المصادر تورد روايات اخرى

---

(٣٣) الطبري : تأريخ ، ج ٣ ، ص ٢١٥ – ٢١٦ ، المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٣٠٦ – ٣٠٨ .
(٣٤) الطبري : تأريخ ، ج ٣ ، ص ٢١٧ ، العلي : محاضرات في تاريخ العرب ، ص ٢٣٢ .
(٣٥) ابن اسحاق : المغازي ، ص ١٠٩ ، ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ٢٣٣ ، ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، الطبري : تأريخ ، ج ٢ ، ص ٢٩٠–٢٩١ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص٢٩٦ ، ابن حزم : جوامع السيرة ، ص ٥ .
(٣٦) الطبري : تأريخ ، ق ٢ ، ص ٢٩٢ ، ابن حزم : جوامع السيرة ، ص ٥ .
(٣٧) الطبري : تأريخ ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .
(٣٨) سورة الاحقاف ، الآية ١٥ ، العلي : محاضرات ، ص ٢٣٩ .
(٣٩) ابن اسحاق : المغازي ، ص ٢٧ . ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ١٥٨ ، ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١٠٠ .

مفادها ان الرسول ولد في حياة والده ، وان والده حين توفي كان عمره وفقا لاحدى الروايات ثمانية وعشرين شهرا (٤٠) ، بينما تذهب رواية اخرى الى ان الرسول ﷺ حين وفاة والده لم يكن قد اكمل ثلاث سنوات من العمر (٤١) ، في الوقت الذي تذهب رواية اخرى الى ان والده قد توفي وهو في السنة الثانية من مولده (٤٢) ، وتذهب رواية اخرى الى ان والده توفي وعمره سبعة اشهر (٤٣) ، في حين تقرر رواية اخرى ان والده توفي بعد مولده بشهر واحد (٤٤) .

ان التضارب الشديد بين الروايات التي تتحدث عن عمر الرسول ﷺ حين وفاة والده تجعلها جميعا غير جديرة بالثقة ، فضلا عن مناقضتها لما ارجحه معظم المؤرخين من ان الرسول ﷺ ولد بعد وفاة والده عبدالله . وان مما يقوي هذا الرأي ما اوردته كتب السيرة من تردد المرضعات اللاتي قدمن من البادية في أخذه من والدته حين سمعن بأنه يتيم (٤٥) . وقد اشار القرآن الكريم الى حالة اليتم التي كان عليها الرسول ﷺ بقوله : ﴿الم يجدك يتيما فآوى﴾ (٤٦) .

لقد ولد الرسول ﷺ في مكة في دار والده عبدالله ، وهو يقع في موضع يدعى شعب بني هاشم ، «كان لهاشم بن عبد مناف دون الناس ، قالوا : وكان عبدالمطلب قد قسّم حقّه بين ولده ودفع اليهم ذلك في حياته ... ثم صار للنبي ﷺ حق ابيه» (٤٧)

بعد ولادة الرسول ﷺ ، أرسلت أمه امنة بنت وهب من يخبر جده عبدالمطلب أن «قد ولد لك الليلة غلام ، فانظر اليه ... فلما جاءها اخبرته خبره وحدثته بما رأت حين حملت به (٤٨) ، وطلبت منه أن يسميه محمدا . وقد ذكر أنه قيل لعبدالمطلب حين سمى حفيده محمدا «كيف سميت باسم ليس لأحد من آبائك وقومك فقال اني لأرجو أن يحمده اهل الأرض كلهم» (٤٩) .

---

(٤٠) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
(٤١) ابن حزم : جوامع السيرة ، ص ٥ .
(٤٢) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .
(٤٣) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١٠٠ .
(٤٤) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .
(٤٥) ابن اسحاق : المغازي ، ص ٢٦ .
(٤٦) سورة الضحى ، الآية ٧ .
(٤٧) الازرقي : أخبار مكة ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .
(٤٨) ابن اسحاق : المغازي ، ص ٢٢ .
(٤٩) السهيلي : الروض الأنف ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

وقد أشير الى انه لايعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم الاّ ثلاثة هم محمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن اميمة ومحمد بن حمران بن ربيعة (٥٠) . غير ان أحد الباحثين قد أحصى اسماء اكثر من سبعة اشخاص قد عرفوا بهذا الاسم قبل الرسول ﷺ ، كما ورد هذا الاسم في نقوش عربية قديمة بصيغ مختلفة ، مثل محمد وحمد ويحمد (٥١) .

ثالثا : حياة محمد ﷺ مع مرضعته :

مكث محمد ﷺ عند أمه فترة قصيرة من الزمن بعد ولادته ريثما يجدون له مرضعة تتولى امر ارضاعه ، وقد ذكر ان اول من ارضعته مولاة لابي لهب تدعى ثوبية «وأرضعت معه ابا سلمة عبد الله بن عبد الاسد المخزومي بلبن ابنها مسروح وأرضعت معهما عمه حمزة بن عبد المطلب» (٥٢) ، فكان هؤلاء الثلاثة أخوة لرسول الله في الرضاعة .

وان مما يدعو للتساؤل في هذا المجال عدم اشارة المصادر التاريخية الى قيام «والدة الرسول ﷺ بارضاعه ، واناطة هذه المهمة بغيرها من النساء حتى قبل ان تجد له مرضعة تتولى أمر حضانته وارضاعه . فهل كانت امه آمنة بنت وهب تعاني من بعض المتاعب الصحية التي تمنعها من ارضاعه ، وبخاصة وانها قد توفيت بعد ذلك بسنوات قليلة كما سنوضح ذلك لاحقا .

يقول ابن اسحاق ان عبد المطلب اخذ يلتمس المراضع لرسول الله ﷺ بعد ولادته (٥٣) . ويروي انه قدم الى مكة بعض المرضعات من بادية بني سعد بن بكر بن هوازن ، يلتمسن الحصول على اطفال لارضاعهم ، وكان عددهن حسب احدى الروايات عشر نسوة (٥٤) . فما من امرأة منهن الاّ وقد عرض عليها رسول الله ﷺ – كما تقول حليمة السعدية – فاذا قيل لها : «انه يتيم ، تركناه ، وقلنا : ماذا عسى ان تصنع الينا امه؟ انما نرجو المعروف من ابي الوليد ، فأما أمه فما عسى ان تصنع الينا؟ فوالله مابقي من صواحبي امرأة الاّ أخذت رضيعا غيري ، فلما لم أجد غيره ، قلت لزوجي الحارث بن عبد العزى ،

---

(٥٠) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٠٥ – ١٠٦ .

(٥١) جواد علي : تاريخ العرب في الاسلام ، ص ٧٦ – ٧٧ ، راجع ايضا : ابن سيد الناس : عيون الاثر ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٥٢) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٣٦ ، ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١٠٨ .

(٥٣) المغازي ، ص ٧٥ .

(٥٤) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١١٠ .

واللّه اني اكره ان ارجع من بين صواحبي ليس معي رضيع ، لأنطلقن الى ذلك اليتيم فلآخذنه ....»[٥٥].

ان النص الآنف الذكر يشير الى ان ارسال الأطفال مع المرضعات الى البادية كان عادة قرشية تمارسها الأسر الموسرة في مكة. وقد ذكر أن من أسباب هذه العادة حرص أهل مكة على ان ينشأ اطفالهم في جو صحي بعيدا عن الوباء[٥٦] ، ومن أجل ان يتعلموا فصاحة اللسان وخشونة العيش ، لقد كانت مكة بحكم مركزها الديني والتجاري مدينة يلتقي فيها أناس من قبائل واجناس مختلفة مما يؤثر على لهجات وعادات أهلها[٥٧] ، فضلا عن احتمالات نقل عدوى الأوبئة الى ابنائها ، فلا غرابة ان تحرص بعض العوائل الموسرة على ارسال اطفالها الى البادية. وربما كان لأصول قبيلة قريش البدوية علاقة بهذه الممارسة حيث بقيت المثل العليا مرتبطة بأجواء البادية على الرغم من اقامتهم الطويلة نسبيا في مكة. وقد روي عن الرسول ﷺ مفاخرا في نشأته في بني سعد وتعلمه لسانهم قوله لأصحابه : «أنا أعربكم ، أنا قرشي ، واسترضعت في بني سعد بن بكر»[٥٨].

ولاتتفق المصادر في تحديد المدة التي مكثها رسول اللّه ﷺ في بادية بني سعد لدى مرضعته حليمة السعدية. فقد ذكر ابن اسحاق أن محمدا ﷺ قد بقي في كنف حليمة سنتين ، فكان «يشب شبابا لايشبه الغلمان فواللّه ما بلغ سنتيه حتى كان غلاما جفراً – أي الغليظ الشديد –»[٥٩] ، فقدمت به على امه. فكانت هذه المرحلة الاولى من اقامته لدى حليمة ، وهي في حقيقتها فترة حضانة ورضاعة. ثم ان حليمة اقنعت امه بتمديد اقامته عندها سنة اخرى لأنها «تخشى عليه أوباء مكة»[٦٠] ، فوافقت على ذلك ، غير ان حليمة لم تلبث سوى شهرين او ثلاثة ، حتى اعادته الى أمه ، لانها خشيت عليه «الاتلاف والاحداث»[٦١] على حد تعبيرها. وبذلك تكون فترة اقامة الرسول ﷺ في بادية بني سعد اكثر من سنتين بقليل حسب رواية ابن اسحاق.

---

(٥٥) ابن اسحاق : المغازي ، ص ٢٦.
(٥٦) المصدر نفسه ، ص ٢٧ ، السهيلي : الروض الآنف ، ج ١ ، ص ١٠٩.
(٥٧) العلي : محاضرات في تاريخ العرب ، ص ٢٣٣.
(٥٨) ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ١٦٧
(٥٩) ابن اسحاق : المغازي ، ص ٢٧.
(٦٠) المصدر نفسه ، ص ٢٧.
(٦١) المصدر نفسه ، ص ٢٧.

وقد ذكرت بعض الروايات ان اقامة الرسول ﷺ لدى حليمة السعدية قد امتدت الى اربع سنوات[٦٢] ، في حين ذهبت روايات أخرى الى ان الرسول ﷺ قد بقي عند مرضعته خمس سنوات .[٦٣]

وعلى الرغم من أنه لا توجد بين ايدينا قرائن قاطعة لترجيح رواية دون أخرى ، الاّ أن ما وصلنا عن اعتزاز الرسول ﷺ بأن لسانه – أي لهجته – في الحديث «لسان بني سعد بن بكر»[٦٤] ، وأنه كان يرعى الغنم في بني سعد مع أخيه في الرضاعة[٦٥] ، يرجح أن مدة اقامته كانت بحدود خمس سنوات .

ويبدو أن فترة اقامة الرسول ﷺ في بني سعد قد تركت أثراً عميقاً في نفسه ﷺ ، وجعلته يشعر تجاه مرضعته حليمة وأبنائها وكأنه واحد منهم ، وكان ذلك أمراً طبيعياً فقد امتدت معايشته لحليمة وصلته بها اكثر من أمه . أما اخوته من الرضاعة من ابنائها وهم كل من عبدالله وأنيسة وحذافة (المعروفة بالشيماء)[٦٦] ، فقد كانت صلته بهم أعمق من مجرد صلة أخوة بالرضاعة لطول اقامته بينهم ولأنه كان وحيداً ، فلم يكن له اخوة وأخوات من أمه وأبيه .

وقد كان الرسول ﷺ بارا بحليمة بعد بلوغه وزواجه ، فقد ذكر ان حليمة قدمت على رسول الله ﷺ بعد زواجه «فتشكت جدب البلاد وهلاك الماشية ، فكلم الرسول ﷺ خديجة فيها فأعطتها أربعين شاة وبعيراً موضعا للضعينة وانصرفت الى أهلها»[٦٧] .

وحين قدمت عليه الشيماء ضمن وفد هوازن ، رحب بها بحرارة «وعمد الى ردائه فبسطه لها فقعدت عليه»[٦٨] ، كما أحسن استقبال وفد هوازن الذين جاؤوه بعد هزيمتهم في معركة حنين طالبين أن يرد عليهم سبيهم ، وأموالهم ، وكان مما قاله عمّه من الرضاعة ابو

---

(٦٢) ابن سيد الناس : عيون الأثر ، ج ١ ، ص ٥٢ .

(٦٣) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١١٢ ؛ ابن قتيبة : المعارف ، ص ٧٩ ، السعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

(٦٤) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(٦٥) ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ١٦٧ ، السهيلي : الروض الأنف ، ج ١ ، ص ١١٢ .

(٦٦) ابن اسحاق : المغازي ، ص ٢٥ .

(٦٧) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١١٣ – ١١٤ .

(٦٨) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٤ ؛ ابن القيم : زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٣٧ .

ثروان : «يا رسول الله انما في هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك ، وقد حضناك في حجورنا ، وأرضعناك بثدينا ، ولقد رأيتك مرضعاً فما رأيت مرضعاً خيراً منك ورأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير ، ونحن مع ذلك أصلك وعشيرتك ، فآمنن علينا منّ الله عليك» .(٦٩) وقد تأثر الرسول ﷺ بهذا الكلام فوافق ان يرد عليهم ما كان له ولبني عبد المطلب وحث بقية اصحابه على الاقتداء به في مساعدتهم فاستجابوا له .(٧٠)

رابعاً : حياة محمد ﷺ مع أمه :

بعد عودة محمد ﷺ من عند مرضعته حليمة السعدية الى أهله في مكة ، عاش الى جوار والدته مدة تقرب من سنة حسب أغلب الروايات(٧١) ، ثم ان أمه عزمت على السفر الى المدينة بصحبة ابنها وجاريتها أم ايمن ، ربما بهدف زيارة قبر زوجها عبدالله هناك ، وتعريف الرسول بأخوال أبيه ومشاهدة قبره .

وحين وصلت الى المدينة نزلت في دار النابغة من بني النجار فأقامت به عندهم شهراً . وقد كان للرسول ﷺ ذكريات حية في نفسه من أثر هذه الزيارة . فكان يذكر أموراً كانت في مقامه ذلك بعد هجرته الى المدينة ، فقد «نظر الى أطم بني عدي بن النجار فعرفه وقال : كنت ألاعب أنيسة جارية من الأنصار على هذا الأطم ، وكنت مع غلمان من اخوالي نطير طائراً كان يقع عليه . ونظر الى الدار فقال ههنا نزلت بي أمي ، وفي هذه الدار قبر أبي عبدالله بن عبد المطلب ، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار»(٧٢) .

وبعد انقضاء زيارة آمنة بنت وهب للمدينة توجهت عائدة الى مكة بصحبة ابنها وجاريتها ، الاّ انها مرضت في الطريق مرضاً شديداً أدى الى وفاتها في موضع بين مكة والمدينة يدعى الأبواء . وقد دفنت في ذلك الموضع .(٧٣)

---

(٦٩) ابن سعد : **الطبقات** ، ج ١ ، ص ١١٤ .

(٧٠) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٥ .

(٧١) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٦ ؛ ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ١٦٨ .

(٧٢) ابن سعد : الطبقات ، ج ١ ، ص ١١٦ .

(٧٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٦ ؛ ابن هشام : السيرة ، ق ١ ، ص ١٦٨ .